# الدقة البلاغية في تركيب الأفعال وتناسبها مع السياق في الأسلوب القرآني

د. حسين محمد عمران

## مقدمة:

الحمد لله رب العالمين أنعم علينا بنعمة الإسلام، وهيأ لنا سبل معرفة الأسرار في القرآن، وسخر لنا نعمة العافية للقيام بخدمة كتابه لمعرفة ما فيه من جواهر البيان، والصلاة والسلام على خير من اصطفى من الأنام. وبعد فإن في التركيب اللغوي كماً هائلاً من الألفاظ اللغوية المزخرفة بالحسن والجمال، كما كان فيه كثير من التشابه في هذه الألفاظ ونسج التراكيب، وقد جمع العقل الإنساني منها أجمل ألفاظه وتراكيبه ووضعها في أبهى صورة وأدق بيان، إلا أن أسلوب الذكر الحكيم كان فوق منزلة هذا التركيب بل تنزه عن المقارنة بهذه المنزلة، حينما يستعمل أنسب الألفاظ نظماً وأجملها دقة بما يتناسب مع السياق على الرغم من اعتقاد تشابهها في مدارك البشر، التي سرعان ما ينتهي معناها إلى القلب ويستقر فيه، والناظر إلى تركيب ألفاظ القرآن الكريم اسماً وفعلاً وحرفاً يظن أن هناك تشابهاً بين معاني تلك الألفاظ إلى المستوى الذي يسبغ عليها طابع الترادف، إلا أن النظم القرآني الكريم بلغ غاية الدقة في تركيب هذه الألفاظ ولم يكن فيها شيء من ذلك، حيث يستعمل كل لفظ في سياقه المتناسب مع المعنى في دقة فائقة واختيار بديع، الأمر الذي يجعلك تدرك أن الألفاظ المختارة في تركيبها قد خُلق لها فحسب، ولن يكون بدله تركيب صالح له غير هذا التركيب، ولو أبدلت هذا اللفظ بلفظ آخر لما استقام المعنى كما اختاره الذكر الحكيم، حتى تتيقن أن ليس في القرآن شيء من المترادفات، بل ينتهي بك الإدراك إلى أن اللفظ الذي اختاره النظم القرآني هو الذي يفتح لك ما استغلق من آفاق الانشراح النفسي. لقد تنوع وضع الفعل في السياق القرآني ووضع وضعاً دقيقاً غاية في الدقة، كما تركَّب في محله حسناً غاية في الحسن، بل كان اختياره نمطاً خاصاً، ونسجاً مميزاً، كان تركيب الفعل في مكانه المقسوم له دون أن يكون مدلول هذا الفعل في سياقه فاضلاً أو مقصراً، وفي هذه الدقة كثير من زمام المعاني وخفي الإشارات، وفي آيات الذكر الحكيم ثروة ضخمة زاخرة بأجلّ المعاني وأقدس الأساليب في هذا السياق، ولكن حينما يقرأ الإنسان الآيات المتشابهات، وفي كل منها فعل خاص مختلف عن الآخر في الآيات الأخريات، يتوهم أنه لو أبدل فعلاً محل فعل لم يختلف المعنى بين هذه الآية وتلك، ولكن بعد الوصول إلى حقائق معانيها تجد أن كل تركيب فيها مختلف عن الآخر، وكلها لآلئ عانقها الإعجاز ذاته، ثم تصل بك إلى أم الحكمة في صواب وسرعة جواب. وبلاغة وضع كل فعل في موضعه من الدقة في البلاغة المتناسبة مع السياق هو أدق من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر حتى يتمكن في النفس أيما تمكن وكما يريده الفكر بعد فهمه فيسقر فيه أيما استقرار.

فمن ذلك مثلاً قوله سبحانه: " ولا تقربوا الزنى " وقوله تعالى: " ولا تقربوا مال اليتيم " أشد في النهي من التعبير بالفعل ذاته. فإن النهي بفعل الاقتراب يوحي بالنهي حتى عن التفكير فيه، وقوله سبحانه على لسان إخوة يوسف: " فأكله الذئب " غير التعبير بفعل الافتراس ذاته، فالأكل مظنة إزالة أخيهم على الإطلاق، في حين كان الافتراس مظنة بقائه حياً. وغير ذلك مما كان في الذكر الحكيم من دقة وإحكام. ولابد أن تزداد أيها القارئ إقبالاً على تلاوة آي الذكر الحكيم حينما تدرك كيف رُكب الفعل في صورة هائلة لا تكتسي هذه الصفة بفعل آخر غير هذا الفعل متناسباً مع سياقه أيما تناسق، بل ارتقى إليها الكمال نفسه، كل ذلك من لدن عليم خبير.

ولابد أن يزاحمنا الشوق إلى معرفة وضع كل فعل مع كل سياق في الأسلوب القرآني ، وقد حاول الباحث بكل ما أودع الله سبحانه في بحثه من حرص على جمع تلك الأفعال وما في هذا التركيب من دقة غاية في الحسن والجمال فإنه أيضاً يحلل الجمال الأسلوبي لهذا الإعجاز ومعنى كل فعل في محله المناسب . ولما كانت صورة البحث لا تحتمل التجزئة والتبويب ، فإن الباحث اكتفى بدراسة وضع الفعل بوضع ما لهذا الفعل من دقة بلاغية في سياقه محل غيره من الأفعال ، وسيسر القارئ حينما ترى أم عينيه جمال هذا الأسلوب .

## دقة تركيب الفعل وتناسبه مع السياق:

وأول ما نبدأ به فيما جاء من دقة في تركيب الأفعال وجمال تناسبها مع السياق الفعلان ( حفظ) و( أقام ) اللذين تركَّبا مع فضيلة ( الصلاة ) التي هي أعظم الفضائل وأجَلّ الشرائع ، حيث ترافق هذان الفعلان مع صفة الصلاة في غير موضع من القرآن الكريم ، فمنه قوله سبحانه وتعالى في آية الأنعام : ( وهم على صلاتهم يحافظون ) الأنعام : ٩٢وقوله سبحانه في آية المؤمنون : ( والذين هم على صلواتهم يحافظون ) المؤمنون : ٩ وقوله جل شأنه في المعارج :

(والذين هم على صلاتهم يحافظون) المعارج: ٣٤ وقوله جلت قدرته في آية البقرة :

(حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ) البقرة: ٢٣٨

وفي استعمال فعل الإقامة يقول الحق سبحانه : ( الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ) البقرة:٣ ( وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) البقرة: ٤٣ وقوله جل ذكره : ( والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة ) الرعد: ٢٢ ألا تراه سبحانه قد استعمل الفعلين ( يحافظون ويقيمون ) دون( يداومون) مثلاً ، ذلك أن المحافظة على الصلوات غير المداومة عليها ، ولم يقل :

(يؤدون) إذ أن المحافظة غير الأداء أيضاً ، فالأداء والمداومة ينبغي أن يكونا محاطين بالمحافظة وتمام الهيئة ، فمعنى الدوام على الصلاة هو ألا ينشغل المرء عنها بشيء آخر من شواغل الدنيا ، وقد تؤدَّى الصلاة دونما انشغال عن غيرها في غير أداء من حسن وكمال ، فأداء الصلاة من قيام وقعود ليس بكاف ، بل ينبغي أن يكون فيها مع ذلك إتمام وخشوع وتدبر وحضور للقلب على أحسن صورة وأكمل وجه ، وهذا ما يصوره معنى المحافظة . وحينما نعود إلى ما جاء في الذكر الحكيم من الدعوة إلى أداء الصلوات فإننا لا نجد أي تعبير يوصي بأداء الصلاة بهذا اللفظ الصريح ، حتى لا ينتقل الذهن إلى أداء الصلاة بركوعها وسجودها على أية هيئة ، بل اختار ألفاظ الخشوع والمحافظة دون غيرهما من ألفاظ الأداء ، وذلك إيذاناً بأدائها على الصورة التي ترتقي إلى مرتبة القبول . ثم ألا تراه سبحانه حينما يأمر بفعل الصلاة فإنه لن يعبِّر بتركيب إلا إذا كان هذا التركيب فيه من التوصية على أداء الصلاة بما ينبغي أن تكون عليه من الخشوع وتمام الأداء ، كما هو الحال في استعمال فعل ( الإقامة ) فيما سقناه من آيات ، فلم يقل سبحانه : وأدوا الصلاة ، أو آتوا الصلاة ، كما هو الحال في الزكاة ، ولذا اختار الحق سبحانه ألفاظ ( الإقامة والمحافظة ) فالإقامة من استقامة الأمر ولن يكون الأمر مستقيماً إلا إذا جيء به على أحسن تقويم وأتم هيئة ، وإذا كانت صفة المحافظة لا تتناسب مع فضيلة الأمانة من حيث اختصاص اللفظ ، فإنها في غاية الفصاحة والتناسب مع فضيلة الصلاة ، إذ لا يفهم من اقتران هذه الصفة بالصلاة سوى أدائها على أفضل صورة وأتم وجه . والمحافظة على الصلاة حفظها من الخلل ، ولن تكون هذه الصلاة محفوظة إلا إذا أحيطت بالرعاية والاهتمام وحسن النظر ، ألا ترى أن الصلاة هي الشريعة الوحيدة التي فرضت في السماء وأية سماء إنها السماء السابعة ، وجميع الشرائع الأخرى فرضت على وجه الأرض ، ولذا كان الأجر والثواب على فضيلة الصلاة ما لم يؤت في غيرها من العبادات ، وحينما شملها الحق سبحانه وتعالى بهذا الفضل ، أحاطها بالرعاية والحفظ . فما أجمل هذا التناسب وما أدق هذا التركيب .

ثم انظر إلى الدقة البالغة في البراعة والجمال في الكشف عن أهمية وخطر موضوع الخطاب المنهي عنه حينما استعمل الفعل ( ولا تقربوا ) في إلزام النفس عن الابتعاد عن جريمة الزنا والتنبيه على خطر الاقتراب منها